القرن العشرون... كان شعرا أيضا !

هذا الذي يستعد للرحيل تاركا المجال للقرن الحادي والعشرين الذي بدأ بعضهم يستشرف ما سيكون فيه من وقائع وما سيسمه من خصائص، لكننا قبل أن نرنو إليه لا بأس أن نقف عند أهم المقولات الأدبية التي كانت بمثابة المحطات الرئيسية في مسيرة الأدب العربي حيث ظلت كالمراكز التي دارت حولها النصوص فقد كتبها الأدباء متأثرين بجملة ما ورد فيها من نظريات متنوعة ومتوالية طيلة هذا القرن.

عندما انبلج فجر القرن العشرين كان العالم قد انتقل الثقل فيه إلى أوروبا بما فيها من مخترعات ميكانيكية ستكتسح بفضلها أصقاع الدنيا وستمتد هيمنتها إلى بقية الشعوب التي ما يزال – وقتئذ الكثير منها خارج حركة التاريخ، والبعض الآخر لم تجده نفعا محاولات الإصلاح فيه فاندحر خائبا محتميا بأسوار مدنه العتيقة بينما ترك سواحله والثغور فيها للأساطيل وللجاليات الإفرنجية كما حدث بالنسبة لأغلب بلاد العرب والمسلمين ولإفريقيا وجنوب آسيا.

**الأسئلة الأولى**

في تونس كانت الطلائع الأولى من الذين تخرّجوا من المدرسة الصادقية ومن المدرسة الخلدونية قد أقروا بأن الاستعمار قد بات مع أواخر القرن الماضي أي القرن التاسع عشر حقيقة باتة وأمرا واقعا لابد من التعامل معه في زمنهم الجديد بحذر وحنكة فلا البلاغة ولا البديع يمكن بهما ابلاغ الوعي لبنى وطنهم بل أن البعض منهم اتخذ من لغة المستعمر آداة كي يوصل حقهم في الحياة الكريمة متسلقا بشعارات الاستعمار التي بها سمح لنفسه بدخول البلدان الأخرى كنشر الحضارة والمدنية وحماية الأقليات ونشر الأمن والإخاء.

في هذا السياق التاريخي العام بدأت الدعوة إلى تحرير الكتابة من قيود السجع في النثر ومن الأغراض القديمة في الشعر ولعل أولى المبادرات الصريحة لهذه الآفاق الجديدة في الكتابة بتونس كانت على منبر مجلة (السعادة العظمى) ضمن أعدادها الأولى الصادرة عند بداية القرن بل إن الأديب محمد السنوسي المتوفي سنة 1900 قد فتح المجال لوصف المخترعات العصرية مثل القطار منذ أواخر القرن التاسع عشر في كتابة الرحلة الحجازية (سنة 1883) وقد جعل لها مقدمة منها قوله : هذه فريدة في المخترعات الجديدة... عسى فيما بعدها أن يأتي من ينسج على منوالها ، ومطلعها يقول :

أرأيتَ كـيف تقــارب البلدان

بالمُزجيـات جرت على القضـبان

ففي ما كان الأدب العربي يحاول أن يسير على نسق العصر – بالنسبة للعالم المتقدم طبعا – وذلك بأن تخلص من شكل المقالة إلى القصة ومن الخطبة إلى المقالة ، ومن الاخوانيات والمدائح إلى وصف المخترعات والوطنيات في الشعر، نعم في ما كان يخرج من النمط القديم كان يكتشف نوعا جديدا من الكتابة الأوروبية ألا وهي المدرسة الرومنطيقية مع أدباء المهجر خاصة.

ثمة ملاحظات لابد أن نقف عليها بعد هذا الردح من الزمن على قيام تلك الحركة الأولى في مطلع القرن العشرين منها خاصة:

**أولا :** أن الكتابة ضمن المنظور الرومنطيقي قد وافقت مهجة ذلك الجيل في التحرر من قيود القديم من ناحية وفي الثورة على مظاهر التسلط والاستعمار من ناحية أخرى وبينما اتجه بعض أدباء تلك الحركة إلى الطبيعة صوب البعض الآخر وجهته إلى المجتمع وقد نجد الاتجاهين لدى نفس الأديب ، غير أن الاتجاه الاجتماعي سيتطور بعدئذ ويصبح أساس المدرسة الواقعية في الأدب العربي بعد الحرب العالمية الثانية بينما سيتجذر الاتجاه الطبيعي إلى الأدب الذهني والصوفي بعده.

**ثانيا :** عندما بدأ الأدب الرومنطيقي عند العرب في الظهور خلال أوائل القرن فإنه كان قد ولى وأدبر عهده في أوروبا منذ أواخر القرن التاسع عشر على أقصى تقدير بحيث أن اللقاء بين الأدب العربي والآداب الغربية جاء متأخرا بمدرستين على الأقل هما المدرسة الرومنطيقية والمدرسة الواقعية اللتان ظهرتا خلال القرن التاسع عشر في البلدان الغربية مما جعل الأدب العربي إلى اليوم يلهث وراء الموضات الأدبية الأوروبية سواء في الشعر أو القصة والرواية أو في النقد والمسرح بالإضافة إلى الفنون الأخرى طبعا.

**ثالثا :** بينما كان الأدباء العرب ينسخون إلى حدود متفاوتة النصوص الأصلية من الأدب الرومنطيقي الغربي كان الأدب الفرنسي والانقليزي والاسباني وحتى الأمريكي قد فتح الأدباء في تلكم البلدان مجالات أخرى جديدة في الإبداع بداية من الرمزية والتعبيرية مرورا بالسريالية والدادائية ووصولا إلى الالتزام والوجودية مع منتصف القرن ولا يمكن استثناء إلا الكتابة ضمن المدرسة الواقعية الاشتراكية التي سرعان ما سار بعض الأدباء العرب على نسقها ولعل ذلك يعود إلى الظروف التاريخية من ناحية وإلى تجذر الأدب الواقعي في التراث العربي الأدبي عموما.

من هذه الملاحظات نخلص إلى أن المعاصرة كانت تعني بالنسبة إلى ذلك الجيل أمرين أساسيين يتمثل الأول في قصد التعبير عن عواطف وأفكار وظروف الحياة في هذا بلغة وأساليب جديدة، أما الأمر الثاني من المعاصرة فهي محاولة اقتناء أثر الآداب الغربية في طرق المواضيع وفي النسج على منوالها ولعل منهجية الأدب المقارن تفرض نفسها في هذا المجال لإثبات مدى الائتلاف والاختلاف بينها جميعا.

**زلزال الأقلام**

ما كادت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها حتى كانت القصائد الرومنطيقية قد استنفدت طاقتها في التعبير والتجديد وما القصائد التي قيلت بعدئذ إلا ترديد باهت لشعراء الثلث الأول من هذا القرن – القرن العشرين وقد بدأ عند الخمسينات منه يظهر جيل آخر قد فتح عيونه على أقطاب الرومنطيقية العربية لكنه بالاضافة إلى ذلك كان مطلعا إلى حدود المواكبة أحيانا على آخر الكتابات في اللغة الفرنسية والانقليزية والايطالية مما هيّأه إلى تعديل ساعاته على المستجدات الحديثة في كل شيء هكذا إذن ظهرت مرحلة الحداثة في الأدب العربي التي استمرت من 1991.

إن كلمة الحداثة قد راجت في أغلب الخطابات التي كانت تتمحور حول الأدب بالإضافة إلى المجالات الأخرى الفكرية والفنية وقد وصل أمر الحداثة إلى المواضيع الاجتماعية الأخرى كل يدلى بدلوه في هذه المسألة من الشرح اللغوي إلى المنهج البنيوي ، ومن المنطلق الاديولوجي إلى التحليل النفسي، ومن المرجع التراثي إلى المنوال الغربي.

لقد اختلطت المفاهيم في أمر الحداثة إلى ذروة التناقض أحيانا ولكنها في الشعر أمست خريطة بلا مفاتيح إذ تعدت فيها الألوان والأشكال فمن عودة إلى الجزالة في اللفظ والتزام العمود إلى الخروج عن التفعيلة والقافية إلى حد بعض النصوص الشعرية باتت تعتم على تلصيق العناوين المتنوعة من الصحف والمجلات والأفلام وغيرها بل أن أحد الشعراء منهم عمد إلى الوقوف صامتا أمام الجمهور زاعما أنه يقول قصيدة صامة بينما الآخر نشر صفحات بيضاء في إحدى مجموعاته الشعرية باعتبارها قصائد بيضاء أما بعض الشعراء الأخرين فإنه ترك بعض السطور فارغة كي يعمد القارئ إلى كتابة فيها ... إلى غير ذلك من الأساليب الغريبة للبحث عن الجديد الصارخ ليس في الشعر فحسب بل حتى النصوص القصصية قد قرأنا لدى بعض كتابها مثل هذه النزعات التي لم تجد في الواقع كبير مناصرة بل هي إلى المخالفة والمصادمة تميل بحثا عن التميز والبروز.

**خمسون سنة**

إن مرحلة النصف الثاني من القرن العشرين وإلى حدود حرب الخليج قد عرفت عديد الندوات والمهرجانات في مناسبات عديدة من ناحية، أما من ناحية أخرى فقد تعددت المنابر الأدبية فإذا كانت القاهرة في النصف الأول من القرن تعتبر العاصمة الثقافية الأولى بلا منازع بما صدر فيها من كتب ومجلات فإن عديد العواصم العربية حاولت إصدار مجلات تكون منابر للحركة فيها وكذلك لتكون قطبا في إقليمها بالإضافة إلى صدور عديد الجرائد والمجلات في العواصم الأوروبية مما نتج عن كل تلك المنابر تشتت الأقلام والكتابات بحيث من الصعب أن نرصد أهم التجارب فيها ومتابعة المسيرة الأدبية في مختلف أرجاء البلاد العربية

ثمة سمات تركت بصماتها في الآثار الأدبية التي كتبها الأدباء العرب في النصف الثاني من القرن العشرين سواء في الشعر أو في القصة والرواية والمسرح بل حتى في النقد ولعل أهم تلك السمات جميعا تبدو في تمثل النصوص الأوروبية الحديثة وكذلك في تضمين علامات بارزة من التراث إلى حدود الاقتباس حينا من بعض النصوص الأدبية في الأدب الفرنسي أو الانقليزي وإلى درجة التضمين لكامل الفصول من بعض الكتب القديمة في التراث ، أما في النقد فإن التطبيق الآلي للنظريات الغربية يكاد يكون بصفة مباشرة على نصوص الأدب العربي.

إن كتابات أدباء النصف الثاني من هذا القرن كانت مشدودة في غالبها إلى مرجعين كبيرين هما المرجع التراثي والمرجع الأوروبي.

وإذا كان القرن العشرون قد بدأ بالدعوة إلى العصرية والتجديد فإنه قد انتهى إلى فسيفساء شديدة التنوع وحادة الاختلاف في الألوان والأشكال حتى بات أمر الأدب لا يستقر على حالة إلا لينقلب بعدئذ عليها ويبحث عن أخرى.

بل إن أمرا مستحدثا حقا في تاريخ الأدب العربي على مدى عصوره السابقة ويتمثل في انصراف عدد مهم من الآباء العرب إلى الكتابة باللغات الأجنبية نتيجة لتعلمهم تلك اللغات في ظروف تاريخية معينة وكذلك لفسحة التعبير الأرحب التي يجدونها فيها إذا قيست بمجال القول في لغة الضاد.

**الثلاثي... والخروج**

أما من ناحية أخرى فإننا نلاحظ التلاشي المذهل للأشكال وللأجناس الأدبية لدى أدباء الحداثة عموما ففي القصة والرواية ما عادت تقوم فيهما الأساليب على الأحداث والشخصيات بل صارت الوقائع تمضي بين السرد والحديث الباطني مرة وبين توازي القصتين أو الروايتين في القصة أو في الرواية الواحدة وقد وصل الأمر إلى احياء الشخصيات القديمة في التراث وجعلها كأنها تسير في شوارع مدن هذا القرن بحيث أن الواقع والخيال والتضمين والرمز وغيره قد صار من جملة الكتابات القصصية والروائية الحديثة .

أما النصوص الشعرية فقد تم الخروج فيها نهائيا عن العمود والتفعيلة والقافية وصارت قائمة على ايقاع أخر يكمن مرة في الأسلوب ومرة في المباغتة ومرة أخرى في المراوحة والتكرار وأحيانا يقوم على السرد والومض بحيث أن كل نص تقريبا قد اكتسب خصائصه في الأسلوب والتراكيب والبناء.

إن حدود النثر والشعر في بعض النصوص قد تلاشت أو كادت بحيث تقاربت الأشكال والأجناس حتى صار بعضها يفضي إلى بعض وحتى أمكن قراءة هذا في ذلك ولعل التطور الذي نشأ في الأسرة والمجتمع بما انعكس منه على الفرد قد يفسر بعض الشيء هشاشة الأشكال التقليدية في الكتابة الأدبية خلال النصف الثاني من القرن العشرين من ناحية وتنامي البحث عن أشكال أخرى بديلة في الكتابة عموما.

إن الأمر يحتاج إلى الزمن الضروري للحث في مدى صلابة وإضافة النصوص التي ظهرت خلال سيادة مقولات الحداثة عبر تجاربها المتنوعة في النصف الثاني من هذا القرن، وفي انتظار ذلك يمكن دراسة جزء مهم من نصوصها وإعلامها باعتبار أن ذلك متوفر من حيث الكم والنوع على الأقل.

عندما فصل إلى الهزيع الأخير من هذا القرن نجد أنفسنا – نحن العرب – مرة أخرى أحداث أخرى أمام أحداث لسنا مهيئين إلى التعامل معها أو تحديها بينما نتحمل وحدنا تبعاتها... إنها حرب الخليج بوقائعها الدامية ومخلفاتها الرهيبة على مستوى الخريطة العربية بالإضافة إلى انقساماتها الدائمة وحروبها الأهلية المتناحرة بينما العالم يخلع الدوسة القديم المهترئ من سنوات الحرب الباردة.

في هذه السنوات الأخيرة من هذا القرن يبدو البون بيننا وبين العالم المتحضر أوسع مما كنا نغلن فنحن نسير على نسق النملة والدنيا حولنا تمضي بخطوات العملاق.

لقد صارت الأمية في عصر العولمة أن لا تعرف استعمال الانترنيت فشتان بين المعرفة عندهم وعندنا.

تونس ـ ديسمبر 1999